الرواية التمثيلية العربية

(توطئة لرواية « الآباء والبنين »)

﴿ لخليل نعيمه ﴾

* * *

حنق البعض على الغرب لاعتقادهم ان المدنية الغربية بثت في حياتنا الجميلة الطاهرة ، الرائعة بأمن تحت اجنحة الملائكة والقديسين ، روح فسق وخلاعة وكفر . وتغنى الآخرون بعظمة الغرب فصاحوا بنا — هيا نعبد الغرب وكل ما خلقه الغرب !

اما نحن فنرى الافضل ان نقف على الحياد بين اولئك وهؤلاء ، تاركين لهم حق تسوية خلافهم بالمدى والفؤوس اذا أرادوا ، بشرط ان لا يعارضونا اذا تجاسرنا ان نعترف ولو بفضل واحد للغرب — وهو فضل اذابه على آدابنا ما تعود البعض ان يدعوه « بهضة ادبية » عندنا ليس سوى نفحة هبت على بعض شعرائنا وكتابنا من حدائق الآداب الغربية ؛ فدبت في مخيلاتهم وقرائحهم كما تدب العافية في اعضاء المريض بعد ابلاله من سقم طويل . والمرض الذي ألم بلغتنا اجيالاً متوالية كان شللاً أوقف فيها حركة الحياة وجمالها ، بعد عزها السابق ، حينما تتذى بها اقلام الزعانف المستعبدين وقرائح « النظاميين » والمقلدين . اما اليوم فقد رجعنا الى الغرب ، الذي

كان بالأمس لمسيانا ، فتقبس من أمثوله جماناها حجر زاوية « نهضتنا الادبية » . وتلك الامثولة هي ان الحياة والادب توأمان لا ينفصلان ، وان الادب يتوكأ على الحياة ، والحياة — على الادب ، وانه — أعني الادب — واسع كالحياة ، عميق كأسرارها ، ينعكس فيها وتنعكس فيه . أدركنا — بفضل الغرب — أن نظم الشعر ممكن في غير الغزل والنسيب ، والمديح والهجاء ، والوصف والرثاء ، والفخر والحماسة . لذلك اطربتنا نغمة بعض شعرائنا الحديثين الذين تجاسروا ان يتعدوا هذه الحدود المقدسة ، وانتقلت الينا — بفضل الغرب كذلك — الرواية ، أو ما يدعونه بالانكليزية (نوفل) وبالافرنسية (رومان) . وكنا اسبق الناس اليها ، فوجدنا فيها مجالاً واسعاً لوصف الحياة والتأثير على العقول والقلوب بواسطة القلم ، وادركنا ان النثر لا ينحصر في صف الكلام المسجع ، والاكثار من الالفاظ الشاردة المدفونة في بطون المعاجم ، وتحبير المقالات المسلة في مواضيع مبتذلة . فقام بيننا بعض من جربوا ان يمثلوا حياتنا اليومية في روايات وطنية .

وهذه خطوة الى الامام .

لكن « نهضتنا الادبية » لا تزال في الاقمطة ، وما نطقت به حتى اليوم ليس سوى لثغ طفل لا يزال مقيد اللسان ، محدود العواطف ، ضعيف العضل . وقد لا يحق لنا أن نلومها على هذا الضعف . لكننا لا نكتم ان رجاءنا بمستقبلها يضعف عندما نراها قد أهملت باباً كبيراً من ابواب الادب لو خبر الغرب بينه وبين بقية الاساليب الكتابية لاختاره دونها . نحن نعني — الدراما

الدراما رافقت الآداب الغربية منذ نشأتها حتى هذه الساعة فاصبحت ركناً من اركانها . واقام لها الغربي المعاهد التمثيلية (التياترو) فأصبحت هذه جزءاً من حياته اليومية كالمدرسة والبيت والكنيسة . في التياترو تجد نفسه الجائعة المتعبة باتعاب العمل وهموم الحياة راحة وتعزية وقوتاً . من أوحال عيشته التي يشابه صباحها مساءها ويومها أمسها ترتفع روحه الى عالم تجول فيه العواطف البشرية بين جميلها وقبيحها ، وضعيفها وقويها ، وشريفها ودنيئها . يرى بعينه على المسرح بشراً مثله غائصين في معركة الوجود يكشفون أمامه اسرار قلوبهم ومخبآت ضمائرهم فيجد في هذه الاسرار وبين تلك المخبآت قسماً من الذات التي يدعوها « انا » ويستعين ببعضها على اصلاح نفسه والاضافة الى خزانة اختباراته . يضم المؤلف والممثل قواهما — الاول بافكاره والثاني بصوته وحركاته — ليخترقا حرمة انفراده الذاتي ، فيدخلان زوايا قلبه ويمسان كل اوتاره ويفتشان بين طيات ضميره ويحركان دولاب افكاره — وبالاجمال يوقظان فيه كل قوى الوجود فيشعر انه كائن حي ورب كلمة تقع في اذنه فيحتضنها للحال عقله وتختمر بها روحه ، أو رب حركة من يد الممثل ينتفض لها قلبه ، أو رب مشهد يهزه بكليته كما تهز العاصفة شجرة من جذورها . لكن هذا التأثير في السامع والناظر لا يمكنه احداثه الا اذا كانت الرواية مشهداً حياً من مشاهد الحياة الحقيقية ، وكان الممثل قادراً على فهم افكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الافكار وتأدية تلك الغاية الى السامع بواسطة الصوت والحركات . فلذلك يتوكأ المؤلف على

الممثل ، والممثل على المؤلف . وغير خفي ان افضل الروايات في يد ممثل ضعيف تضيع كل قوتها ورونقها ، وبالعكس — ان الممثل الحاذق يلبس احياناً ابخس الروايات حلة جمال وقوة ، ولذلك رفع الغرب شأن الممثلين كشأن المؤلفين فأجزل عطاهم بالمال واحاطهم بالشهرة في الحياة ، وطيب ذكرهم بعد الموت .

فماذا فعلنا نحن ؟

نحن لا نزال ننظر الى الممثل نظرنا الى « بهلوان » والى الممثلة كعاهرة ، والى التياترو كمقصف ، والى التمثيل كنوع من القصف واللهو ، شعبنا لم يدرك بعد اهمية فن التمثيل في الحياة لانه لم ير بعد روايات تمثل امامه مشاهد من حياة يعرف آلامها وبلاياها ، لم ير بعد نفسه على المسرح . واللوم عائد على كتابنا لا على الشعب . جل ما قدمناه حتى الان الى الشعب من الروايات التمثيلية ينحصر في بعض روايات معربة اكثرها من سقط المتاع وكلها غريبة عنه ، بعيدة عن اذواقه ، قصية عن مداركه . انا لا أشك قط في انها ستجري عندنا ، عاجلاً أو آجلاً ، مسرحاً وطنياً تمثل عليه مشاهد حياتنا القومية . انما يقتضي لذلك قبل كل شيء ان يحول كتابنا انظارهم الى الحياة التي تكر حولهم كل يوم ، الى حياتنا بعجرها وبجرها ، وافراحها واتراحها ، وجمالها وقباحتها ، وشرها وخيرها ، وأن يجدوا فيها مواد لاقلامهم — وهي غنية بالمواد لو دروا كيف يبحثون عنها

يبشرنا الانقلاب الذي طرأ مؤخراً على آدابنا بقدوم تياترو وطني ولو

كانت العقبات في طريقه لا تزال كثيرة . من هذه العقبات وهم اجتماعي لا يزال راسخاً في عقول الكثيرين هو ان التياترو يفسد الاخلاق الطاهرة — لا سيما اخلاق البنات والنساء . رحمتك يا ربي ! ومنها فقرنا الى الكتّاب الروائيين والروايات التمثيلية الوطنية . لكن أكبر عقبة صادفتها في تأليف « الآباء والبنين » — وسيصادفها كل من طرق هذا الباب سواي — هي اللغة العامية والمقام الذي يجب ان تُعطاه في مثل هذه الروايات . في عرفي — واظن الكثيرين يوافقوني على ذلك — ان اشخاص الرواية يجب ان يخاطبونا باللغة التي تعودوا أن يعبروا بها عن عواطفهم وافكارهم وأن الكاتب الذي يحاول ان يمثل فلاحاً اميا يتكلم بلغة الدواوين الشعرية والمؤلفات اللغوية يظلم فلاحه ونفسه وقارئه وسامعه ، لا بل يُظهر اشخاصه في مظهر المزرئ حيث لا يقصد المزل ويقترف جرماً ضد فن جماله في تصوير الانسان حسبما نراه في مشاهد الحياة الحقيقية . هنالك أمر آخر جدير بالاهتمام متعلق باللغة العامية — وهو ان هذه اللغة تستر تحت ثوبها الخشن كثيراً من فلسفة الشعب واختباراته في الحياة وامثاله واعتقاداته التي لو حاولت ان تؤديها بلغة فصيحة تكون كمن يترجم اشعاراً وامثالاً عن لغة أعجمية . وربما خالفنا في ذلك بعض الذين تأبطوا القواميس وتسلحوا بكتب الصرف والنحو كلها قائلين ان « كل الصيد في جوف الفرا » وأن لا بلاغة او فصاحة او طلاوة في اللغة العامية لا يستطيع الكاتب ان يأتي بمثلها بلغة فصحى . فلهؤلاء ننصح ان يدرسوا حياة الشعب ولغته بامعان وتدقيق .

الرواية التمثيلية ، من بين كل الاساليب الادبية ، لا تستطيع ان تستغني عن اللغة العامية . انما « العقدة » هي انا لو اتبعنا هذه القاعدة لوجب ان نكتب كل رواياتنا باللغة العامية اذ ليس بيننا من يتكلم عربية الجاهلية او العصور الاسلامية الاولى ذلك يعني اقراض لغتنا الفصحى . ونحن بعيدون عن ان نبتغي هذه الملمة القومية . فاين المخرج ؟

عبثاً بحثتُ عن حل لهذا المشكل فهو اكبر من أن يحله عقل واحد ، وجل ما توصلت اليه بعد التفكير الطويل ان اجعل المتعلمين من اشخاص روايتي — كداود والياس وزينة وشهيدة وناصيف بك — يتكلمون لغة معربة ، والاميين — كأم الياس — ان تتكلم اللغة العامية . أما خليل سماحه — وان لم يكن أمياً تماماً — فقد رأيت الاحرى ان اجعله يتكلم العامية لانها توافق اطباعه ومداركه ، وكذلك موسى بك في حديثه مع ام الياس وفي بعض المشاهد التي تليق بها اللغة العامية اكثر من الفصحى . لكني اعترف باخلاص ان هذا الاسلوب لا يحل « العقدة » الاساسية . فالمسألة لا تزال بحاجة الى اعتناء اكبر رجال اللغة وكتابها

والمشكل الاخر الذي وقفت امامه حائراً سائلاً هو ضبط كتابة اللغة العامية بطريقة تزيل الالتباس والابهام وتؤدي اللفظ المقصود . تركت أمر « اللهجة » التي تختلف كثيراً باختلاف المقاطعات والامكنة الى فطنة الممثل وحذاقته لكنني اصبحت تهيباً عن أن اضع لاجل هذه الروايات وحدها اصطلاحات لضبط الكلام العامي . ونحن بحاجة ماسة الى هذه الاصطلاحات

اذا احببنا ان نتقرب من الشعب وتهذيبه باقلامنا · العامة تستعمل حروفاً لا وجود لها بين حروف الهجاء المعروفة مثل (G. E. O.) الافرنسية وتلفظ القاف في اكثر المحلات كالهمزة · فيجب ان نضيف الى لغتنا بعض اصطلاحات تقوم مقام هذه الحروف · انما يجب ان تكون هذه الاصطلاحات عمومية كي لا يحدث تبلبل وتشويش حيث نقصد اتفاقاً ووحدة · فمن يقوم لنا بهذه المهمة ؟ لو كان عندنا مجلس ادبي او شبه اكاديمي لالقينا على عاتقه هذا الامر · اما ولا اكاديمي لنا فهل تصدق الاحلام وتحمل الغيرة على اللغة العربية وادابها بعض ادبائنا في الشام ومصر على تأليف هيئة دائمة تعتني بترقية اللغة والمحافظة عليها وتكييفها بموجب الزمان والاحوال ؟

افضل الآ اقول شيئاً عن اشخاص الرواية او الرواية نفسها سوى انني حاولت ان ألج فيها طرقاً محدوداً من موضوع حيوي كبير في حياة الامم جمعاء — وحياة شرقنا على الاخص — ذاك هو الخلاف الابدي بين الاباء والبنين والتباين الدائم بين القديم والحديث · واذا لم يكن نصيبي منها سوى دفع بعض كتابنا الاوفر مقدرة مني في معالجة مواضيعنا الاجتماعية على تأليف الروايات التمثيلية فقد نلت غايتي

اذا شئنا ان نرفع آدابنا من المستنقعات التي تتمرغ فيها فعلينا ان نسعى من الان لوضع اساس متين للمسرح العربي بتربية اذواقنا التمثيلية وتعزيز الرواية الوطنية ، حتى اذا نهضنا كانت « نهضتنا » نهضة جبار أفاق من نوم طويل لا نهضة عاجز فتح عينه ليرى الموت امامه

٠٠